الباب الثانى

الدعوة إلى التوحيد

(طوبى للغرباء الذين يتمسكون بالكتاب حين يترك ،
ويعملون بالسنة حين تطفأ)

حديث شريف

إذا كانت الأرض الطيبة تنتج حاجة أهلها من الغذاء ، ويمتد عطاء الله فيها إلى أبعد من حدودها – فكذلك الأمة العظيمة تنتج حاجاتها من العظماء مصلحين أو ولاة أو علماء . ولما أحوج الفساد المسلمين إلى دليل يأخذ بيدهم فى التيه الذى أُركسوا فيه – كان محمد بن عبد الوهاب جواب السماء لتعيد الجزيرة العربية إلى سيرتها الأولى مصدراً للنور حيث ارتفعت قواعد البيت العتيق ، ونزلت آخرة الرسالات بلسان عربى على نبى عربى .

وما كان أعجب أرض نجد فى جدوبتها ، وقبائل بنى حنيفة وبنى تميم فى خشونتها ، منذ ظهر الإسلام ودارت فيها حروب الردة الضروس حتى استهلت دعوة ابن عبد الوهاب ، لتبدد فيها مرة أخرى ظلمات شرك ران على القلوب ، وزلزل قواعد الجماعة ، ورحض مواهب العلماء ، وأيئس دعاة الإصلاح !

وفى اختيار السماء أرض نجد بذاتها منطلقاً للدعوة الإسلامية من جديد آية من الآيات ، كثيرة العبر والعظات :

ومن أهمها فى هذا المقام ثبوت اقتدار الحنيفية السمحة على أن تقود أقدام السائرين على المحجة الواضحة ، وأن تحتشد فى الصدع بالدعوة أجيال متلاحقة تصنع بها السماء انتصاره فى حياته ، وتصقل سيوف الشجعان فى سواعد صُدُقٍ فى اللقاء صُبُر فى الشدائد ؛ لتزدهر الشجرة ، وتنبت الحبة الواحدة مائة حبة فى غير من واد من وديان الماء والارتقاء ، وأن يعيد التاريخ نفسه فيتيح « للمنهج السلفى » أن يهدى الناس للحق ويفتح أرض الله لعباده : بالفهم الصحيح للدين والجهاد الصادق فى سبيله .

وظهور ابن عبد الوهاب وازدهار فكره فى مجالسه وانتشاره فيما عداها ، وديمومة تطبيقه فى

حياته نصف قرن أو يزيد شيئاً من حريملا إلى العيينة إلى الدرعية فأصقاع نجد ، ومنها إلى الأقطار المتنازحة الديار فى جزيرة العرب – هى مواضع الفصل الأول من هذا الباب .

والفصل الثانى فصل فى الأصول التى قامت عليها الدعوة وتبادَر إلى العمل بفحوها أتباعها واستحبوا الموت فى سبيلها ، لتكتب لأمتهم الحياة بإخلاص التوحيد من شوائب شرك عنيد زعزع العقيدة ، فصير الرجال أمساخاً يعبدون مالا يملك لهم النفع أو الضرر . فلما تحررت نفوسهم من الخرافات والانحرافات كانوا حقاً مسلمين ، فقدروا على أن يحملوا تبعاتهم وأن يحدثوا الإصلاح الذى تتنادى به الأمة فى كل مكان .

وإذْ كان الإمام إمام فقه فى المقام الأول ، والفقه قوام الشريعة – فقد أوردنا فى الفصل الثالث فرعين : أولها عن (الاجتهاد) وهو أساس الدعوة وعرضنا نماذج من فقه الإمام فى العادات والمعاملات تتجلى فيها طريقة الإمام فى بسط آرائه والدفاع عن الحرية القانونية فى إنشاء العقود وأنواع الشروط ليكون الإنسان جديراً بالخلافة عن الخالق جل ثناؤه فى الدنيا التى سخرها له ، ولتتضافر حرية السعى فى الحياة مع عبادة الله وحده فى فتح الأبواب للمسلم ، ليتخذ الدنيا طريقاً للآخرة ، فيعمر العالم بالعمل الصالح .

أما الفرع الآخر فخاص بالتأويل « الباطنى » أو « الرمزى » المعطل للنصوص القطعية الورود والدلالة فى العبادات والمعاملات ، وهى قوام الدين ، من يخرج عليها يتجاوز الإسلام إلى عالم الخيال ، ويعمل بتشريع من صنع الناس .

والباطنية هى العدو التقليدى للمنهج السلفى الذى رفع أعلامه عالية محمد بن عبد الوهاب .

الفصل الأول

الداعى إلى الله

(كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد فلا تعبدوها
فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً واتقوا الله يا معشر القراء
وخذوا طريق من قبلكم) حذيفة

نحن الآن فى نجد حيث انتشر المذهب الحنبلى بعد موت الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى فى سنة ٢٤١ . وبنو شيبان منتشرون فى كل مكان بالخليج العربى من اليمامة (نجد) حتى البحرين .

وفى النصف الأخير من القرن الثالث مكن للمذهب بالعراق تلاميذ الإمام وتلاميذهم ، وتقلبوا به فى بقاع الإسلام ، حتى بلغ الأندلس على يد بقىّ بن مخلد (٢٧٦) .

وفى القرن الرابع مكن له أبو بكر الخلال (٣١١) بالعراق وأبو القاسم الخرقى (٣٣٤) بالشام . ودرج الأتباع على المنهج السلفى للإمام كأسلوب فكر وطريقة حياة . يقول فى منهجهم الذاتى والعلمى واحد من أعيانهم[1] :

(هم قوم خشن تقلّصت أخلاقهم عن المخالطة ، وغلظت طباعهم عن المداخلة ، وغلب عليهم الجد ، وقل عندهم الهزل ، وعريت نفوسهم عن ذل المراءاة ، وفزعوا من الآراء إلى الروايات ، وتمسكوا بالظاهر تحرجاً من التأويل . غلبت عليهم الأعمال الصالحة ، فلم يوفقوا فى العلوم الغامضة . بل وفقوا وأخذوا ما ظهر من العلوم ، وما وراء ذلك قالوا : الله أعلم بما فيها من خشية بارئها ، ولم أحفظ عليهم تشبيها ، والله أعلم أنى لا أعلم فى الإسلام طائفة محققة خالية من البدع سوى من سلك هذا الطريق) .

وفى القرن الخامس برز من حنابلة نجد عالمان من «بنى تميم» هما :

عبد الواحد بن عبد العزيز التميمى (٤١٠) وعبد الوهاب بن عبد العزيز التميمى (٤٨٨) .

وفى القرن العاشر تعاقب حنابلة مشهورون فى نجد . منهم أحمد بن يحيى بن عطوة التميمى (٩٤٨) = (١٤٤١) فى بلدة الجبيلة الخالدة بذكرى شهداء حروب الردة وتلمذ له شهاب الدين أحمد بن عبد الله .

---

(١) أبو الوفاء بن عقيل (٤٣٠ - ٥١٣)

كما ظهر فيهم شرف الدين أبو النجا موسى ، وأحمد بن موسى ، وأحمد بن محمد بن مشرف ثم مرعى بن يوسف الحنبلى النجدى (١٠٣٣ - ١٦٢٣)[١] وعبد الله آل عبد الوهاب (١٠١٠ - ١٦٤٦) وقد ولى قضاء العيينة . فابنه عبد الوهاب (١٧١٢) .

وعاصر عبد الوهاب فقيهٌ كبير من «آل مشرف» هو صديقه سليمان بن على بن مشرف وقد صار أشهر الحنابلة فى عصره حتى مات سنة ١٦٦٨ م عن مؤلفات معروفة منها كتاب (فقه المناسك فى أحكام المناسك) .

وولى سليمان قضاء حريملا ثم العيينة ، وولد له ابن أسماه عبد الوهاب .

وضرب عبد الوهاب بن سليمان فى العلم بسهم ؛ وولى قضاء حريملا .

وفى سنة ١١١٥ للهجرة ، ١٧٠٣ للميلاد ، ولد له ابن أسماه «محمداً» .

وآل مشرف بطن من بطون حنظلة بن مالك بن زيد مناة تميم . وتميم من أكبر القبائل العربية عدداً ، وأوسعها انتشاراً فى إقليم نجد . وبهم تمتزج القبائل . ومنها «بنو حنيفة» .

قالوا لو تأخر الإسلام لأكلت تميم العرب !

وإلى نجد كان خلفاء بنى أمية يبعثون أبناءهم ليحتفظوا بالفصحى ؛ إذ يُنجدون . فلا تخالط ألسنتهم تطرية المدائن أو عجمة الهجناء ، ويعودوا من البادية عرباً خلص اللسان صحاح الأبدان .

ومن نجد اشتهر شعراء العرب منذ الجاهلية : فلهم فى أصحاب المعلقات أربعة من عشرة : زهير بن أبى سلمى ، وعبيد بن الأبرص ، وامرؤ القيس ، وعنترة .

ومنهم فى المائة الأولى من عُمر الإسلام - أشهر وأشعر شعرائها : الفرزدق وجرير والحطيئة والخنساء .

وبميلاد «محمد بن عبد الوهاب» فى هذه البقعة من جزيرة العرب كُتبت لنجد وللمذهب الحنبلى والعالم الإسلامى صفحات جديدة .

* * *

نشأ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على التميمى فى «العيينة» بوادى حنيفة - وهى قرية باليمامة غرب الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية الحالية - وتلمذ من حداثته المبكرة لأبيه ، وكان أبوه مثابة للوافدين من قريب وبعيد . يطلبون التفسير والحديث والفقه على مذهب الإمام أحمد .

---

(١) وهو القائل :

إذ قلد الناس الأئمة إننى ... فى مذهب الحبر ابن حنبل راغب

فقد فتواه وأعشق قوله ... والناس فيما يعشقون مذاهب

حفظ الصبي القرآن قبل العاشرة . وأحاط في حلقة أبيه بكتب السلف ، ثم انطلق في العلم ما وسعه ، فلما وقع على مؤلفات ابن تيمية ملكت عليه لبه .

وفي المتحف البريطاني في لندن بعض رسائل ابن تيمية نسخها محمد بن عبد الوهاب بخط يده ؛ مما يشير إلى أنه يستقصي فكره ، ويقتفي أثره بيده وعقله ، وسنراه فيما بعد يصنع صنيعه .

وذات يوم قدمه أبوه ليؤم المصلين وهو في فتاء السن . بل إن الأب ليقول عن الابن ما يرويه حسين بن غنام – مؤرخ الأيام العظيمة بتكليف من محمد بن عبد الوهاب – « لقد استفدت من ولدي محمد فوائد شتى في الأحكام » .

ثم حج عالم العيينة الجديد واعتمر ، فشهد من بدع الحجيج ومراسم تعظيم القبور والاستغاثة بالموتى ما حزَنه ، وعرف أن فساد الفكر والفعل في أهل نجد ليس إلا بعض الفساد الذي يعرضه – مركزاً في الزمان والمكان – حجاجُ بيت الله الحرام من كل فج .

ثم اجتذبه جلال المكان وعِلْم علمائه ، فرجع إلى الحجاز يتلقى الفقه والحديث على يد الشيخ محمد حياة السندي (١١٦٥) ، ثم لزم عالماً من أهل نجد من آل سيف رؤساء بلدة المجمعة ، هو الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف (١١٨٣) فتذاكر حالة الأمة بعامة ، وحالة نجد بخاصة للإصلاح .

وتحدثا عن استعمال السلاح ، والشباب يغرى بالقوة ؛ فهي أعجل إلى الغرض ، وهي بعض الجهاد الذي سيستطرد إليه التلميذ فيما بعد ، أما الشيوخ فيؤثرون استعمال العلم . فهو سلاحهم ومألف لهم ، وهو أنجح على المدى الطويل وأفلح في النهوض بمجموع الأمة .

قال الشيخ يوماً لتلميذه :

تريد أن ترى ما أعددنا من سلاح للمجمعة ؟

قال : بلى :

فقاده إلى قاعة كتبه وأظهره على ما فيها من مؤلفات ثم قال : هذا ما أعددناه من سلاح !

وفي مجلس من المجالس سأل الطالب شيخه عن الأدعية والنداءات التي ينادى بها الناس ، إذ يذكرون الأولياء ويزورون وكأنهم يحجون – الأضرحة فأجاب بقوله تعالى :

(إن هؤلاء مُتبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) .

وسنرى بعد أن السؤال والجواب هما مهمة حياة ابن عبد الوهاب وطريقته ؛ فهذا فكر فتيّ أصيل نبت في بكور الشباب . تزيده السنون قوةً بالمعرفة ، والتجربةُ حكمةً بالرأي النضيج ، ويهيئ له الصدام طاقة الانفجار .

وبشرية الرسول الخالصة لا تأذن لأحد أن يرفع إلى مقام العبادة أحدا إلا الخالق جل شأنه ،

لكن (الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النملة السوداء فى ظلمة الليل) . كما يقول ﷺ .

فصل الطالب عن شيخه وقد اهتدى إلى طريقته فى الإصلاح وهى تعليم دين الله الخالص . فرجع من الحجاز إلى نجد ، ليلبث قليلاً . ثم يرحل إلى بغداد ثم إلى البصرة . والبلدان من أسبق مراكز العلم فى الإسلام .

* * *

أقام العالم الناشئ فى البصرة سنوات أربعاً درس فيها على عالمها الشيخ محمد المجموعى علوم الحديث واللغة ، ورأى من تقديس الشيعة فيها للمزارات والأضرحة والأئمة ما أربى على ما شهده فى الحجاز ، فاستنكره فى مجالسه فكان يبهت سائليه فيبلسون .

قال فيما بعد : (كان أناس من مشركى البصرة يأتون إلىّ بشبهات يلقونها علىّ . فأقول وهم قعود لدى : لا تصلح العبادة كلها إلا لله ، ويبهت كل منهم فلا ينطق) .

وضاقت به صدور الناس . واعتدوا عليه وعلى شيخه المجموعى . فخرج فى حمرة لقيظ من البصرة إلى بلدة الزبير ، فبقى فيها أياماً يفكر فى الذهاب إلى الشام ، ومنعته الضيقة . فرجع إلى الأحساء ، فأقام زماناً فى ضيافة الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعى ، ثم قفل راجعاً إلى حريملا [1] وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره . وكان أبوه قد انتقل إليها من العيينة خلاف مع أميرها .

وفى الحريملا استقر فكره على إعادة الناس إلى التوحيد . والقضاء على مظاهر الشرك ، فوضع كتابه (التوحيد الذى هو حق المولى على العبيد) .

واختلفت آراؤه فى مؤلفه عن آراء أبيه ، فصاحب أباه بالمعروف حتى توفى فى سنة ١١٥٣ هـ . عندئذ أعلن دعوته ونشر كتابه . وتناقلت آراءه بلدان العارض ، من حريملا إلى العيينة

---

(١) ورد فى بعض الكتب أن الشيخ ذهب من بغداد إلى كردستان وإيران ، ودرس التصوف ثم عاد عن طريق بيت المقدس . وكرر ذلك بعض المستشرقين وهو غير صحيح . إذ لايذكره علماء نجد ممن ألفوا فى سيرة الشيخ . ولم يورد آل الشيخ فيما يكتبونه أنه خرج إلى خارج جزيرة العرب . وقد ناقشنا فى هذه الواقعة الشيخ عبد العزيز بن باز كبير علماء السعودية فى الرياض مساء يوم ١٤ / ١ / ١٩٧٦ فأنكر ما أورده المؤلفون من رحلة الشيخ إلى كردستان وإيران ، وقرر أنه تلقى هذا عن أشياخه ومنهم حمدة الشيخ وخاصة شيخه الذى تلقى العلم عليه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ .

وثابت أن الشيخ (ابن عبد الوهاب) لم يعرف اللغة الفارسية . ولا أثر فى فقهه أوكتبه لذلك

وهو قد أعلن فى بعض رسائله أنه لايدعو إلى مذهب صوفى أوفلسفى .

إنما وردت هذه الشبهة فى كتاب مؤلف غير معروف (لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب) ، لم ترد فى كتب من عاصروا الشيخ كتلميذه حسين بن غنام . أوبعده بسنوات كابن بشر .

والشيخ قد ذكر رحلاته . وليس فيه رحلة إلى فارس أوخارج البلدان العربية . فعقل الشيخ وعلمه عربى خالص . ومن أصالته العربية كان تلقى العقول له بالقبول .

فالدرعية ، ذلك المحور الذى كان يتحرك فيه ليحرك جزيرة العرب حوله .

واستنسخ بعضُ كتابه ، فذاع بين المتفقهة من أهل نجد . وظهر تأثيره فى كيد الكائدين له ، فحرضوا بعض العبيد ليقتلوه ، فكمنوا له فى جوف الليل ليتسوروا داره لولا أن مر بهم بعض السيارة من البدو ، فانفض الكمين ونجا الشيخ .

ولم يكن صدفة أن تسوق السماء هؤلاء ، وإنما سهرت عين السماء على حياة رجل أعدته ليحدث الإصلاح المنتظر .

* * *

هجر الشيخ حريملا إلى العيينة كمثل ما هجر البصرة – فالعيينة مألف له . والهجرة سنة الرسل والشيخ عليم بتاريخ الجهل فى بلدان نجد . لقد قتل جهال بلدة الجناح فى ذات يوم علماءها كلهم !

وسيرى قبل أن يموت بعشرسنين بلدة الخبراء تقتل عالمها (منصور أبا الخيل) وأخاه وهما فى طريقهما للمسجد ليؤم المصلين منهم .

وفى العيينة أصهر إلى أميرها (عثمان بن حمد بن عبد الله بن معمر) ثم صار الأمير من أتباعه ، وعلا نجم الشيخ بعد إذ جاهر الأمير بدعوته وازداد أتباعه ، وكان قد بلغ الأربعين من عمره ، والسلطة معه .

وتأييد السلطة للمذاهب عظيم الأثر فى انتشارها محلية كانت أم عالمية ، علمية كانت أم اجتماعية :

فالأفكار إذا أيدتها السلطة تأخذ سبيلها إلى الناس فى يسر وقصير أجل .

وإذا عارضتها فقد تفسد عليها أمرها إذا كانت غير قادرة على البقاء ، لكنها إذا عارضت الفكر الصحيح هيأت له الأسباب : فإما أتاحت له الانتشار الذى يشبه الانفجار ، وإما أخرته زمانا أو أخسرته معركة ، لكنه لا يموت .

ولقد كان ذلك دأب الإسلام من يوم ظهر : قاومته مكة فانتشر . وعملت المدينة فى كلاءته – إذ صار دولة – فبلغ حيث أراد الله فى مهاب الرياح الأربعة . ولما عوقت الدولة – بجهل أولى الأمر – فكر ابن تيمية ، حبس ومعه تلميذه ابن القيم ، لكن الفكر ملك أفئدة العلماء فى انتظار ابن عبد الوهاب ، ليفجر ينابيعه ، ويستخدم السلطان فى نشره .

والخرافات بضاعة مزجاة فى كل مكان ، وبنجد خاصة ، لقلة العلماء والمتعلمين وفساد آراء الكثيرين :

فهذا « فحل النخل » فى بلدة منفوحة يشد إليه العوانس رحالهن فيدعونه مبتهلات : (يا فحل

ارزقنى زوجا قبل الحول) .

وهذه شجرة الذيب تؤمها النساء ، ويعلقن عليها خرقا بالية لعل العواتس منهن يرزقن الأزواج والعواقر يرزقن الأولاد والوالدات يبقى لهن ذكورهن .

وهذا قبر زيد بن الخطاب فى « الجبيلة »[1] يحج إليه الناس ملتمسين تفريج كروبهم .

وهذا غار (بنت الأمير) فى أسفل (الدرعية) يهدى إليه الخبز واللحم .

وهذا رجل فى « الخرج » اسمه (تاج) يقدمون النذور له فى انتظار نفعه واتقاء ضره .

حتى الفلوات كانت تقدم فيها القرابين إلى الشياطين لترضى !

وصاحب النذر يذبح ذبحًا ويلطخ جسمه بدمه ليقبل نذره .

والمدين يذرف الدمع عند قبر الولى ليعينه صاحب القبر على سداد دينه .

والراعى يضع قلائد فى أعناق غنمه لتعيش . والتاجر يضع ظلف الحيوان على باب متجره .

والناس يحملون الرقى والتمائم والأحجبة والحرز ، والنساء يلطمن الخدود وراء الحنازات ، ويولولن كأنهن الشياطين الفزعة .

وهناك أولياء أحياء وقبور موتى يقدسها ويقدسهم الناس . وفى كل مكان أصحاب بدع وتجارات بها كالتى أسلفنا فى غير موضع .

* * *

استفتح الشيخ جهاده ببيان منهاجه فقال : إنه لا يدعو إلى طريقة جديدة وإنما يحيى الدين ، ويدافع عن السنة ويبدّع الخارجين عليها ، ويجتهد رأيه ، ولا يقلد أحدا .

وإذا وجد فى غير المذهب الحنبلى ما هو أصلح للناس - فهو يذهب إليه باجتهاده : قال فى إحدى رسائله : (إنى لم آت بجهالة ، بل أقولها ولله الحمد : إن ربى هدانى إلى الصراط المستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، ولست ولله الحمد أدعو إلى مذهب صوفى أو غيره ، بل أدعو الله وحده لا شريك له ، وأدعو إلى سنة رسوله ﷺ التى أوصى بها أول أمته وآخرهم) .

وانطلق يتلقى بيعة الجمهور له (على دين الله ورسوله وعداء أهل الباطل ، كما تبايع على عداء كل من عادى الشيخ وموالاة كل من والاه ولو أنه أميرنا عثمان بن معمر) . فالشيخ يحتاط للدين من فلتات الأمراء وانحرافاتهم . ويرفع شأن الدعوة على الولاء لتحكام لتكون كلمة الله هى العليا .

وستسلك الدعوة هذه السبيل على الدوام ، فنسمع قول ابنه عبد الله إذ حمل رسالة أبيه بعد

---

(١) الجبيلة قرية دارت فيها سنة ١٣ المعركة الكبيرة بين المسلمين والمرتدين من أهل اليمامة ، واستشهد فيها عدد من الصحابة ودفنوا فى ثراها ، وقيل : بنيت قبة على قبر زيد بن الخطاب . فكان العامة يعظمونها .

وفاته فى إحدى مناقشات عبد الله لأهل مكة سنة ١٢١٨ = ١٨٠٣ :

(مذهبنا فى الأصول مذهب أهل السنة والجماعة ، وطريقنا طريق السلف) .

فلا جديد فى المذهب أو الطريقة ، وإنما الجديد فى العزم والتصميم وفى اتخاذ الجهاد وسيلة له دون الاكتفاء باستنكار المنكر بالقلب أو بالكلام .

وأطلق أتباع الشيخ على أنفسهم (الحنابلة) أو (السلفيين) أو (الموحدين) .

وأطلق خصومه على دعوته وصف الوهابية على اعتبار أنها بدعة . وتمادى الأتراك فى الأضاليل ، وقالوا عن أصحابه : إنهم (الخوارج) أو (الروافض) والطائفتان نقيضان للدعوة . وهما فيما بينهما خصمان لدودان ، فإنما خرج الخوارج على على وشيعته والأمة التى بايعت له . والشيخ يدعو دعوة الأمة وأهل السنة ، ولا يذهب مذاهب الشيعة .

وفى أوائل القرن الهجرى الحالى كتب مؤلف من أصل تركى هو إسماعيل سرهنك باشا يقول : إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب (. . . . . أتى بعبارات مزورة ولبّس بها على العوام حتى يتبعوه ، وألف لهم فى ذلك رسائل حتى اعتقدوا كفر أكثر أهل التوحيد . وألف العلماء رسائل فى الرد عليه ، حتى أخوه الشيخ سليمان وبقية مشايخه) .

ولا ينقض الفكر إلا فكر أعلى منه حجة . ولو كانت مخالفة الأخ لأخيه حجة لحججنا المؤلف بكتاب (عنوان المجد فى تاريخ نجد) حيث تقرأ قول ابن بشر : (كان للشيخ محمد أخ هو سليمان ابن عبد الوهاب كان مناوئا لأخيه ، ألف رسالة يعترض فيها على دعوته اسمها (الصواعق الإلهية فى الرد على الوهابية) ، وفى سنة ١١٩٠ قدم الدرعية تائبا ، وبقى فيها حتى وفاة أخيه الإمام) .

ولا على الإمام لو خالفه واحد ، فلقد خالفه مالا عدد له ممن جروا وراء الشهوة أو السلطة أو غلبت عليهم الغفلة .

وأكثر الذين يخالفون الشيخ ممن لهم وزن لا يخرجونه على الحق ، بل يختلفون فى التقدير فلا يوافقون على تكفير الرجال من جراء مايقترفونه عن جهالة ويبدعون البدع ذاتها ومن اقترفوها . ويرونهم يعملون أعمال الكافرين عن غير فهم أو عن تقليد . والتقليد بذاته إحدى الكبر ، إذ لا يقبل تقليد فى العبادات ، لأن الإيمان لا يحتمل التقليد ، بل يجب له الإدراك الذاتى .

* * *

والمعنى الأساسى للشهادة أن الأمر كله لله سبحانه . وليس فى الوجود ما يعظمه الناس سواه وهو القائل جل جلاله : (قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) ولكن الناس يلغون ذواتهم

وكراماتهم ويمجدون الملوك والأمراء والأقوياء والقوى المجهولة بالفعل أو بالفكر ، ويحجون إلى مقابر الأولياء ، ويقدمون لها النذور ، ويذبحون الذبائح ، ويقيمون القباب الشامخة للموتى . ويشدون الرحال إلى القبور فى مظاهرات كأنها أداء الشعائر ! ويطوفون بمقابرهم طواف الطقوس التى يمجدها اليهود والنصارى . بل إن من الناس من يحلفون بالله ، فيكذبون ، فإذا حلفوا بالأولياء لم يحلفوا إلا صادقين !

ومن الردة عن الدين ما هو فعلىّ ، ومنها ماهو رسمى : ومن الفعلى أن يقارف الناس أعمال الكفار أو يعطلوا حدود الله وإن كانوا ينطقون بالشهادة ، أما الكفر الرسمى فهو المجاهرة بالإلحاد الصراح . وقل أن يقع .

والفرق بين العرب فى الجاهلية والعرب فى الإسلام أنهم لما وحدوا الله واتحدوا على دينه خلصت عقيدتهم وسمت نفوسهم وجاهدوا للدين فسادوا العالم فى سنين بعد أن كانوا مسودين من شمال ويمين ، من الروم والفرس !

والفرق بين الأجيال الثلاثة المفضلة (جيل الصحابة ، والتابعين ، وتابعى التابعين) وبين ما أعقبها من أجيال يظهر جلياً فى ظهور الإسلام وازدهاره فى القرون الأولى . فى حين كانت القرون الأخرى قرون انكماش فى الفكر وحرمان من الابتكار وازدياد للتخلف ، كلما تتابع عصر بعد عصروبأقدار متناسبة مع ظهور البدع .

وطلب الخير من غير الله تعويل على قوى مجهلة ومضللة وإهدار لإنسانية الناس وتعطيل لسعيهم وتخريب لمرافق الدنيا !

وحذر البطش من السلاطين والشياطين والمجهولين وغضب الموتى يورث الجبن والقلق والوهم فتسل الأنفس وتصاب قرائح الناس بالشلل .

لذلك كان الإسلام حربا على الأصنام أيا كانت : دمى أو أشياء أو أشخاصا أو أفكارا - تحول دون توحيد الواحد القهار .

كان للعرب فى الجاهلية شجرة (ذات أنواط) يعلقون عليها سلاحهم ، فنهاهم عنها النبى عليه الصلاة والسلام .

وتبع عمر هدى النبى فى شأن الشجرة التى بايع تحتها المسلمون (بيعة الرضوان) ، فأمر بها فقطعت ، لأنه عرف أن العرب يحنون إليها ، مجرد الحنين .

ونهى النبى عليه الصلاة والسلام عن اتخاذ القبور مساجد قال : (إن من كانوا قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك) فانتهى الناس زمانا ثم عادوا .

ولما نهى ابن تيمية عن هذه البدع وأمثالها وعذب وسجن ازداد فكره ذيوعا فى الأمة ، لأنه ثبت ولم يتراجع . ولما مات فى سجنه زاد علوا فى ضمير الأمة وتأثيرا فى فكرها : فمحمد بن عبد الوهاب يجىء على موعد مع الزمن . ولما ساقت السماء إليه تأييدا من أمير العيينة كان الله يزع بالسلطان إذا عمل بالقرآن .

وشق الشيخ طريق ابن تيمية من جديد دون أن يقف عند النصح أو التدريس – أن قد واتاه الزمان ليترقى من تدريس الفقه إلى تطبيقه فى الأمة والدولة ، وهى فرصة لم يتحها الزمان لابن تيمية .

١ – هدم قبورا كان يستغاث بأصحابها ، وفى طليعتها قبة (زيد بن الخطاب) فى الجبيلة .

٢ – قطع الشجرات التى كان الضلال ينسبون إليها الكرامات . فلم تعد الشجرة الملعونة (الذيب) ترزق العوانس رجالا أو العواقر بنين .

٣ – وجلس مجلس التدريس المنظم لمنهج متكامل يحمل مسئولية تنفيذه حاكم يقدر على تطبيقه فى جماعة تتبادر به إلى نصرة دينها وصلاح دنياها ، فيسر الإصلاح فى كل وجه .

٤ – وبعث رسالاته للعلماء فى سائر أرجاء الإسلام .

٥ – وأقام الحدود : ففى ذات يوم جىء بامرأة تزنى متلبسة . وشهد عليها الشهود وأقرت ، وثبت أنها صحيحة العقل ، وكانت تمت إلى أمير الأحساء بنسب ، فحُسبت أنه سيعصمها من الرجم ، لكن الشيخ أمر بحدّها ، فرجمت . وكان أمير العيينة أول من نفذوا الحد فيها .

وقامت قيامة أمير الأحساء سليمان بن محمد بن عزيز . وبصبص إليه الأدعياء من العلماء بالأذناب . قال قائل منهم : إن حد الرجم لا يوقع إلا بعد استئذان ولى الأمر ، واحتج الشيخ عليهم بصحيح الفقه أن من تغلب على بلد أو بلدان كان له حكم الإمام فى جميع الأشياء ، والناس من قبل الإمام أحمد حتى أيام الإمام محمد بن عبد الوهاب لم يجتمعوا على إمام واحد .

وطلب أمير الأحساء إخراجه من العيينة مستندا إلى فتيا هؤلاء العلماء . وكتب إلى أمير العيينة يتهدده بأنه سيمنع إرسال حقوق الأمير لديه ، على نخل تحت يديه ، وبأنه سيمنع خراجا كان له فى الأحساء مقداره اثنا عشر ألف دينار .

وأبلغ أمير العيينة الشيخ بما جاء من وعيد .

وفى رواية أخرى أن أمير الأحساء كتب إلى أمير العيينة : (اقتله فإن لم تقتله قطعنا – خراجك) .

وكان قلب الأمير أضعف من أن يصبر فى الشدة ، ومن أن يجاهد فى الله ، فاكتفى بأن يطلب إلى الشيخ الخروج عن دياره .

قال الشيخ : إن الذى أدعو إليه هو دين الله ، وإن صبرت واستقمت وقبلت هذا الخير فأبشر بأن الله سينصرك ويحميك من هذا البدوى وغيره ، وسوف يوليك الله بلاده وعشيرته . .

قال الأمير : إنا لا نستطيع محاربته ولا صبر لنا على مخالفته .

هكذا كان فزع أمير العيينة من أمير الأحساء أكبر من خشية الله أو فهمه لمصلحته ، فخرج الشيخ من العيينة إلى مهاجره الثانى فى الدرعية حيث أراد الله أن يبلغ أوجه .

إلى الدرعية

خرج الشيخ على قدميه سنة ١١٥٨ لم يعطه أمير العيينة راحلة ، وسار طول النهار راجلا إلى الدرعية حتى دخلها بليل . فقصد واحدا من أتباعه ، وخاف الرجل أمير الدرعية (محمد بن سعود) فأنزل الشيخ على قلبه الطمأنينة .

وكان من أتباعه بالدرعية أخوان للأمير همامشارى وثنيان ابنا سعود [1]

لجأ مشارى وثنيان إلى زوج الأمير « فحدثاها حديث الشيخ وما يدعو إليه ، فقالت للأمير : (إن هذا الرجل ساقه الله إليك ، وهذا غنيمة فاغتنم ما خصك الله به) ، وقال قائل من الأخوين : (سر إليه بنفسك وأظهر تعظيمه – يسلم من أذى الناس) . فسار إليه .

قال له الأمير إذ لقيه : (أبشر ببلاد خير من بلادك وأبشر بالعز والمنعة)

قال الشيخ : (وأنا أبشرك بالعز والتمكين وهى كلمة « لا إله إلا الله » من تمسك بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد . وهى كلمة التوحيد . وأول ما دعا إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم)

قال الأمير : (يا شيخ ، إن هذا دين الله ورسوله الذى لا شك فيه ، وأبشر بالنصرة لك ولما أمرت به ، الجهاد لمن خالف التوحيد . ولكن أريد أن أشترط عليك اثنتين :

الأولى : نحن إذا قمنا فى نصرتك والجهاد فى سبيل الله وفتح الله لنا ولك البلدان أخاف أن ترحل عنا وتستبدل بنا غيرنا .

والأخرى : أن لى على الدرعية قانونا (فريضة) آخذه منهم فى وقت الثمار وأخاف أن تقول : لا تأخذ منهم شيئا) .

---

(١) آل سعود من عشيرة عنزة ، ومن قبائل ربيعة من حفدة بكر بن وائل وربيعة فروعها فى نجد والعراق والشام وكان جدهم مانع بن المسيب المريدى يقطن بلدة القطيف وتربطه لحمة نسب بابن درع صاحب حجر اليمامة والجزعة المعروفين قرب الرياض . فقصده إلى بن درع سنة ٨٥٠ هـ - ١٤٤٦ م فأقطعه قطيعة استقر بها على مقربة من الدرعية ، فاستعمرها وتناسل فيها حفدته وازدادوا رفعتها ، وجعلوا الدرعية عاصمة لها .

قال الشيخ : (أيها الأمير) ، أما الأولى فابسط يدك أبايعْك : الدم الدم والهدم الهدم ، وأما الأخرى فلعل الله أن يفتح لك الفتوح فيعوضك الله عن الغنائم ما هو خير منها) .

وبسط الأمير يده وبايع الشيخ على دين الله ورسوله والجهاد فى سبيله وإقامة شرائع الإسلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ودخل الشيخ المدينة واستقر عند الأمير .

ولئن كان محمد بن عبد الوهاب هو الذى يفرض على محمد بن سعود شروطه بعدم اقتضاء الضريبة ، إن الملاحظة الأساس التى يتمثل فيها طابع الدعوة منذ برزت إلى الوجود – هى العمل بكل سنة الرسول ، لذلك ترى المحمدين (ابن سعود وابن عبد الوهاب) يستعملان فى البيعة صيغة الرسول فيستحضران ما صنعه الرسول وأنصاره والمهاجرون ليصنعاه من جديد ، وأن البيعة كانت على الجهاد ، فلم تعد المرحلة المقبلة مرحلة هداية مجردة أو إرشاد ، فلقد تطورت طريقة الشيخ بعد نجاحه فى العيينة وفشل أميرها وجبنه ، وأمسى لزاما أن تتغير الطريقة لتصبح الدم الدم والهدم الهدم .

ولئن لوحظ أن السلطان رجا الإمام ليبقى له دخله المفروض على الناس لينفق منه على دولته – إن الإمام سما بالدولة وحمى الناس ، فألغى الضريبة على الناس ودعا للأمير بالنصر الذى يعوضه ما فاته . ونصر الله أكبر . وعوضه أكثر . وكل أولئك كان ، فلقد صدق المحمدان ، والله مع الصادقين .

* * *

ذاعت أنباء هجرة الشيخ من العيينة إلى الدرعية فأدت أعظم الخدمات للدعوة بنشر تعاليمها وأخبار ما حققته فى العيينة ، وهلع أميرها وبطش أمير الأحساء . وتعاظم الرجاء فى الدرعية ومن فيها . والفكر يخدمه الأصدقاء والأعداء على السواء .

وتوالت وفود نجد وما جاورها يعتنقون الدعوة ، ويعودون إلى بلدانهم مبشرين ومنذرين ومعلمين .

وطالت سنوات التدريس ، فصارت بشريات الوفود من كثرتها وتلاحقها طنيناً فى كل سمع ، وحديثا فى كل مجتمع !

ومنهاج الشيخ فى الدرس -كمنهاجه فى الحياة قاصد صريح وكمنهاجه فى التأليف – لا يزخرف القول ولا يرقِّش الحجج ، بل يجىء بها من مصادرها : (القرآن والسنة وعمل السلف) . وهو عربى يفاقه العرب بآيات كتاب لسانه عربى وسنن نبى من العرب .

وهو القادم من ميادين التجارب . ونضو العبادة الذى هزل التقشف قوامه . ناصع الجيب نقى

القلب محبب إلى الناس . يحمل هموم تبعاته . لا يهيش أحد فى مجلسه ولا يُثلَب غائب . وهو فياض السخاء ممسك بالزمام . لا يفتات الأمير عليه . وإنما ينطلق فى خدمة الدعوة من غزاة إلى غزاة . إن مهاجماً وإن مدافعاً . ويطبق أحكام الإسلام ويلزم كل قبيلة أن تتبع قانون المنتصر وما هو إلا عبادة الله وحده والزراية بالتماثيل والأصنام والخرافات الفعلية والفكرية ليعيد إلى القوم كرامة المسلم .

وأشرفت على جزيرة العرب أيام عظيمة كأنها من جلال صنيعها وبهائه تقدم العذر للتاريخ عن سابقة قبائل نجد أيام ردة العرب .

بل جاء عثمان بن معمر يسعى على استحياء ، ويلتمس أن يرجع الشيخ إلى العيينة ، فلم يتقبض عنه ولكنه وعظه ، فهو قد بايع على ألا يترك ابن سعود وعلى أن يكتب الله لهما النصر . وإنهما لمنتصران .

وفى سنة ١١٦٣ كان الشيخ فى قمة السلطة ، وقتل عثمان بن معمر فى العيينة ، فقصد الشيخ إليها . وأمر عليها ابنه مشارى بن عثمان ، وبعد عشر سنين عزل مشارى لفساده . وهدم قصر آل معمر ، وهم أخوال آل سعود .

ولما انتشرت الدعوة فى بلدان نجد اشتد عليها الأمراء الذين يترك أتباعهم أقاليمهم إلى الدرعية ، إذ أصبحت دار هجرة يؤمها الناس . أو يتجهون تلقاءها بقلوبهم ، ويصدر منها المجاهدون والدعاة والآراء إلى غير مكان . وتنشأ فيها الأجيال على العقيدة الصحيحة والعبادة الخالصة لله ، ومحبة الجهاد فى سبيله . والزهد فى زخرف الحياة ومتاعها الكاذب . والسعى لكل ما هو حق ومصلحة يأذن بها الشرع ، لا رفث ولا فسوق ولا خديعة ، بل مجتمع سلفى نموذجى يتواصى بالخيرات ويتضامن فى المكاره . والشمل جميع والمودة سابغة والأخلاق رغيبة .

والجهاد العسكرى يصهر معادن الرجال ، فينفى خبث الأنكاس والأرجاس ويبقى الفضائل . والقوم يتوافدون إلى الميادين أو منها فرحين مستبشرين . تشد أزرهم أخلاق النصر التى تعودوها . وأول قانون الإسلام أنه يبلغ بمجتمعاته غاية الطهر ونهاية القوة لإخلاص التوحيد وانتصار الناس على شهواتهم وغفلاتهم ، يوم يصدقون ما عاهدوا الله عليه ، فتصير الدولة لهم ويسبقهم الفزع منهم إلى قلوب أعدائهم . ويفرحون بنصر الله لهم والفتح القريب عليهم .

وملاك الأمر فى الإسلام : عبادات تقف المخلوق بين يدى خالقه صباح مساء لتسوبه . وقربات يرتفع بها درجات إلى رضوانه جل شأنه ، وحدود زاجرة تمنع من الإجرام من لم يجرم – وهم سائر الناس – وتعزيرات كفيلة بالجزاء على الخطيئة أيا كانت ، ومعاملات قوامها العمل للحياة ، يستخدم الناس فيها المال ولا يستخدمهم ، فلا يكنزونه أو يحبسونه ولا يأكلونه

بالباطل أو بالربا أو بالغرر ، ونظام اجتماعى يحمل « إيجابية » الرجل فريضة الإنفاق على الأسرة ويجعل وظيفة المرأة بالتصون . ويحول الزوجين أسباب حسن التبعل .

فالأسرة فيه — لا الفرد — نواة المجتمع ، وبهذا ينهض المجتمع على أقدام لا على قدم واحدة ويكاد الجار يشرك الجار من تواصله ، والخادم سيد القوم . والأمير أجير عند الرعية والرعية مؤدية له ما يؤديه لخالقه .

وفى كل ذرة من ذرات هذا النظام تجرى فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مجرى الدم فى الجسم . فتجعل التواصل اليومى والتكافل الاجتماعى بجعل المنظم الداخلى لنشاط الفرد وتعاون الجماعة . وللعمل اليومى لولى الأمر ، فيعيد هذا المنظم ميزان الفرد والجماعة والدولة إلى الاعتدال فى أول بادرة جديرة بالتقويم والتسديد .

وفى ذلك كله تستعمل الحنيفية السمحة الفطرة البشرية وتشجعها كمثل استعمال الترياق المنبعث من الغريزة يفعل فيها ويفعل بها ، فيصلحها ويصلح بها ، فالشريعة لا تتغيا إصلاح الناس بالقوة القاهرة المحرية ، أو بالقسوة التى تذبل بها الطبيعة البشرية ، أو بالقوالب المصبوبة التى تقمع الشخصية الإنسانية ، ولا تتوسل إلى أنفس الناس بطريقة مصنوعة قد يخرج المكلفون عن إطارها ، بل عمادها السليقة المطبوعة على الخير ، لتعود إلى الأصل إذا انحرفت كلما هديت إليه ، وهى أهدى وأقوى وأقصد بعناصرها الذاتية التى تزين الإيمان وتحببه ، وتكره الكفر والفسوق والعصيان ، وتنفر من الظلم وتُغذّ الخطى للتقدم . . . . صنع الله الذى خلق هذه الأنفس ، وشرع لها أسباب صلاحها ووسائله .

* * *

ووطأ الأكناف فى نجد لنطهارة والقوة اللتين تتناتجان فتحدث كل منهما الأخرى أن أقاليمها كانت مذ خلقها الله بمنجاة من التطرية المجلوبة من الحواضر . أو التخليط الشعوبى الذى أعجل الفرس والترك والأوربيين إلى أقطار المسلمين . فاستعصمت فيها الأصالة العربية ثم تمت نموها الطبيعى . فأصبحت أسمع لصوت الدعوة وأقدر على أن تذيع بها فى الآفاق البعيدة وأن تبقى فكرها الوضاء ينشر الأضواء فى القرون التالية .

وموقع الدرعية فى صميم نجد يهب لها القدرة على تحقيق أغراض الدعوة وأسباب الانتصار . إذ كانت على مبعدة خمسمائة كيلومتر من البحر فى الشرق وألف كيلومتر من الحجاز فى الغرب . فهى قائمة حيث تلتقى الطرق وتفترق ، وتريح القوافل القادمة ، من الجنوب أو الشمال فى مكان صالح لنشر الأفكار الصحيحة ونجاحها فى تحقيق أغراضها . إذ تشهد القوافل تطبيقها الكامل فى مجتمع

متكامل تحكمه دويلة صغيرة تبتغى وجه الله وحده ، ولهذا كانت محط آمال المتفائلين ومحل سؤال من الكثيرين .

وليست الكيلو مترات فى الصحراء مسافات ، والناس فيها أسمع وأبصر وأكثر تواصلا مما يتصور أهل الحضر .

وفى التخوم كثير من الخصوم : ففى الأحساء آلاف من الشيعة الاثنا عشرية (١)، وفى القطيف آلاف من القرامطة (٢)، وفى اليمن ملايين من الشيعة الزيدية (٣)، وفى ينبع آلاف من الشيعة الكيسانية (٤)، وفى عمان خوارج إباضية (٥).

وفى سائر الأقاليم أهل سنة تجعلهم الجهالة والقربى أشد عداء للدعوة سواء فى الشمال فى الشام ، أو فى الشرق فى العراق ، أو فى الجنوب فى تهامة وعسير ، أو فى الغرب فى الحجاز .

لكن الخصام كان أعجل فى نشر الدعوة والإذاعة بأنبائها لما فيها من فكر أصيل لا تنل منه الأباطيل . كما كانت إحاطة هذه الأقاليم بنجد أنفع للدعوة ، إذ جعلت الدرعية فى مركز الدائرة ، وجعلت (حريملا - العيينة - الدرعية - الرياض) محل المحور القادر على التحكم بالعقيدة الصحيحة والتضحية فى سبيلها .

وهكذا أتيح لإقليم (اليمامة) أن يعظم شأنه مرة أخرى . ولليمامة - كما يسمى القلقشندى وسط نجد حتى إقليم الأحساء - ذكريات أعظم عند المسلمين : فى الشمال من البلدان الأربعة التى ذكرناها تقع جبلة حيث مقابر الصحابة الذين استشهدوا فى حروب الردة . ومواقع معركة عقرباء بين خالد بن الوليد ومسيلمة الكذاب (١٢ - ٦٣٣) ، وفى وادى بنى حنيفة (وهم بطن من بطون بكر بن وائل) عاش أجداد الرجال الأحياء فى هذا المكان ، ومنهم من بقى ، ومنهم من غيرت الهجرات مقامه وحل محله غيره : مثل قبائل عنزة والرشايدة وشمر .

* * *

كان هوذة وثمامة ملكين على نجد عندما انفجر فجر الإسلام .

فجاء هوذة كتاب من رسول الله يقول : (بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى هوذة بن على . سلام الله على من اتبع الهدى . واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فاسلم تسلم . وأجعلْ لك ما تحت يديك) .

---

(١) نسبة إلى قولهم بإمامة اثنى عشر إماما وهم الإمامية أو الجعفرية نسبة للإمام جعفر الصادق .

(٢) نسبة لحمدان قرمط ، وهم فرقة من الإسماعيلية يقولون بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق .

(٣) نسبة للإمام زيد بن على .

(٤) نسبة لكيسان مولى جهينة يقولون بإمامة محمد بن الحنفية (ابن على بن أبى طالب من زوجه من بنى حنيفة) .

(٥) فرقة من الخوارج هى أكثرهم اعتدالا .

وأجاب هوذة : (ما أحسن ما تدعونى إليه ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم والعرب تتهابّ مكانى ، فاجعل لى بعض الأمر أتبعْك) .

فلما وقف عليه الصلاة والسلام على جوابه قال : (لو سألنى سيابة من الأرض ما قبلت . باد وباد ما فى يده) . .

أما ثمامة فأسرته خيل النبى . فلما اقتيد إليه قال له عليه الصلاة والسلام : (ماذا عندك يا ثمامة) ؟ .

قال : عندى خير . إن تنعم تنعم على شاكر ، وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تُعط .

فأمر النبى بإطلاقه ، فأسلم ، ثم عاد إلى اليمامة فمنع أهلها أن يحملوا الحنطة إلى مكة . وفى السنة العاشرة قدم وفد اليمامة ووادى حنيفة (١)، فأسلموا وفيهم مجاعة من بنى فزارة بن

---

(١) يقول الشيخ فى المختصر : (لما فرغ رسول الله ﷺ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ضربت إليه أكباد الإبل لحمل وفود العرب من كل وجه فى سنة تسع . وكانت تسمى سنة الوفود . . فقدم عليه عطارد بن حاجب الثيمى من أشراف « بنى تميم » جاءوا فى أسرى « بنى تميم » الذين أخذتهم سرية عيينة بن حصن الفزارى فى المحرم من هذه السنة . وكان عيينة قد أخذ أحد عشر رجلا واحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيا وساقهم إلى المدينة . فقدم رؤساء بنى تميم فيهم « كلم دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات - وهو فى بيته - أن اخرج إلينا . فآذى ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله فيهم : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم) فلما خرج إليهم قالوا : جئنا لنفاخرك . فأذن لشاعرنا وخطيبنا قال : « أذنت لخطيبكم » فقام عطارد فخطب فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس « قم فأجب الرجل . فقام ثابت فخطب وأجابه ، وقام من جانب بنى تميم شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حىّ يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع

فقال رسول الله ﷺ لحسان « قم فأجب الرجل » فقال :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع

إن كان فى الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

قال الزبرقان . . قال حسان . . .

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس : (إن هذا الرجل لمؤتى ، لخطيبه أبلغ من خطيبنا ، ولشاعره أبلغ من شاعرنا ، ولأصواته أعلى من أصواتنا) . فلما فرغ القوم أسلموا وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم .

ويقول الشيخ فى المختصر عن حروب الردة فى عهد أبى بكر :

(لما كان من العرب ماكان ، ومنع من منع منهم الصدقة - جد بأبى بكر الجد فى قتالهم ، فدعا زيد بن الخطاب يستخلفه (فى القيادة) فقال : « قد كنت أرجو أن أرزق الشهادة مع رسول الله ﷺ ، فلم أرزقها ، وأنا أرجو أن أرزقها فى هذا الوجه . وإن أمير الجيش لا ينبغى أن يباشر القتال بنفسه » فدعا أبا حذيفة بن عتبة ، فعرض عليه ذلك . فقال : مثلما قال زيد ، فدعا سالما مولى أبى حذيفة فأبى عليه . فدعا خالداً فأمره على الناس . فسير خالداً إلى اليمامة .

فلما فرغ خالد من براخة وبنى عامر أظهر أن أبا بكر عهد إليه أن يسير إلى أرض بنى تميم وإلى اليمامة . . . ففرق خالد السرايا فى نواحيها ، فأتت سرية منهم بنى حنظلة وسيدهم مالك بن نويرة ، وكان قد بعثه النبى ﷺ مصدقا على قومه ، فجمع صدقاتهم ، =

عنفوة فأقطعهم النبي مقاطعات من أرض بني حنيفة ، وكان في الوفد « مسيلمة » بن حبيب خدعوه في رحالهم ، فأجازه النبي معهم وحذّر منه . وكان تحذيره تنبيها على ما سينجم في هذه البقعة من الأرض ، حيث العصبية الجاهلية في عنفوانها ، وحيث تدور من بعده عليه الصلاة والسلام أعنف المعارك وأخطرها على الإسلام .

وسنرى حروب الردة في أرض اليمامة وضراوتها ووقوعها بين فريقين يشهدان شهادة الإسلام . لكنهما مختلفان في فهم حقيقة التوحيد ، درسا أساسيا من دروس الشيخ في مجالس تدريسه وكتبه . وبخاصة (مختصر سيرة الرسول) .

= فلما بلغته وفاة النبي ﷺ حفّل إبل الصدقة : أي ردها إلى أصحابها ، ولذلك سمي الجفول ، فأسندوا إليه أمرهم) .

ويروي الشيخ عن رافع بن خديج قال : (قدمت على النبي ﷺ وفود العرب فلم يقدم علينا وفد أقسى قلوبا ، ولا أحرى ألا يكون الإسلام يقر في قلوبهم ، من بني حنيفة وكان مسيلمة مع الوفد) .

صف خالد جيشه وقدم رايته مع زيد بن الخطاب ، ورفع راية الأنصار إلى ثابت بن قيس بن شماس (خطيب النبي يوم وفد بنو تميم) فتقدم بها وجعل على ميمنته أبا حذيفة وعلى ميسرته شجاع بن وهب ، واستعمل على الخيل . . . أسامة بن زيد . فاقتتلوا قتالا شديدا ، وصبر الفريقان صبرا طويلا حتى كثر القتل والجراح بين الفريقين ، وامتشر القتل في المسلمين وحملة القرآن حتى قتوا إلا قليلا ، وهُزم كل من الفريقين حتى دخل المسلمون معسكر المشركين ودخل المشركون عسكر المسلمين . وجعل زيد بن الخطاب ومعه الراية يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به مسيلمة ، وأعتذر إليك من فرار أصحابي ، وجعل يشتد بالراية في نحور العدو ، ثم ضارب بسيفه حتى قتل رحمه الله ورضي عنه ، فأخذ الراية سالم مولى أبي حذيفة فقال المسلمون إنا نخاف أن نؤتى من قبلك ، قال : بئس حامل القرآن أنا إذا أتيتم من قبلي ، ونادت الأنصار ثابت بن قيس ومعه رايتهم : الزمها ، فإنها ملاك القوم ، فحفر سالم لرجليه حتى بلغ أنصاف ساقيه . وحفر ثابت لرجليه مثل ذلك ثم لزما رايتهما .

ولقد كان الناس يتفرقون في كل وجه وإن زيدا وثابتا لقائمان حتى قتل سالم وقتل أبو حذيفة مولاه .

قال وحشي بن حرب : اقتتلنا قتالا شديدا حتى رأيت شهب النار تخرج من خلال السيوف حتى سمعت لها صوتا كالأجراس . ولم يلق المسلمون عدوا أشد نكاية من بني حنيفة . لقوهم بالموت الناقع ، فكان المعول يومئذ على أهل السوابق .

ولما رجع عبد الله بن عمر إلى المدينة قال له أبوه : (ما جاء بك وقد هلك زيد ؟ ألا واريت وجهك عني ؟) وأجاب عبد الله : (قد حرصت على أن يكون ذلك ، ولكن نفسي تأخرت . وقد أكرمه الله بالشهادة) . وذات يوم ذكر عمر وقعة اليمامة فقال : (ألحت السيوف على أهل السوابق ولم يكن المعول يومئذ إلا عليهم ، خافوا على الإسلام أن يكسر بابه فيدخل منه إن ظفر مسيلمة . فمنع الله الإسلام بهم حتى قتل عدوه وأظهر كلمته . وقدموا رحمهم الله على ما يسرون به من ثواب جهادهم من كذب على الله ورسوله فاستحريهم القتل فرحم الله تلك الوجوه) .

ومضى زمن على أيام اليمامة وكان عمر يصلي ، فرأى رجلا متنكبا قوسه ، فسأل عنه وعرف أنه متمم بن نويرة أخذ مالك من عدة . فاستنشده تأوه لفقده في أخيه فأنشده حتى بلغ قوله :

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأني ومالكا ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

قال عمر : هذا والله التأبين لوددت أني أحسن الشعر فأرثي أخي زيدا بمثل مارثيت أخاك . قال متمم : لو أن أخي مات على مامات عليه أخوك مارثيته ، قال عمر : ماعزاني أحد عن أخي بمثل ماعزاني به متمم .

والسيرة درس تستحبه الأنفس ، وفى مختصرها تعليق على الحوادث ، واستخلاص للعبر بلغ فيه الشيخ غاياته .

ودروس الردة عن الإسلام كله أو بعضه وقيام الحرب من جراء فساد الاعتقاد مع الإقرار بالشهادة حجة للشيخ فى صميم منهاجه من :

١ – وجوب إخلاص الخضوع لله وحكمه .

٢ – وجوب الجهاد والحرب لإعادة المرتد عن بعض الأحكام إلى دين الله الصحيح .

والحجج أفعل فى الأنفس إذا كانت من سُلاّف المحجوجين أنفسهم ، أو وقعت فى عقر دارهم فى نجد كلها أو اليمامة خاصةً . فهى عندئذ تستعمل الزمان الحبيب ، والمكان القريب ، والعامل الإنسانى فى الإثبات .

٣ – أما الحجة على الشيخ فهى أن يعد للأمر عدته فى نفسه وفى الناس وفى الأمير وفى جند الدعوة . فهؤلاء قومه وهذا تاريخهم . وهو ينشد هداية الناس . ووضع الندى فى موضع السيف مُضر كوضع السيف فى موضعه .

٤ – ومن الحجج على الأمير أن يتهور سيف الأمير أو يكون كافر الغضب .

ومن أجل ذلك كانت الحرب مشغلة له وإن لم يخرج مع الأمير للحرب ؛ فهو مسئول عن العلم والإرشاد ، مسئول عن شريعة الحرب والسلام ، لكن العلم ميدانه وحده ، والحرب ميدان الأمير وجند الدعوة .

* * *

فى هذه الحقبة النادرة من تاريخ الإسلام عدسة صغيرة يبصر الناظر من خلالها بمعان عظيمة عظمة الإسلام ، ونتائج لها أعظم الأثر فى خلوده . ومن المعانى جلال الاستشهاد فى سبيل إزاحة الكفر من عقول أهل نجد ، وتطهير جزيرة العرب من الشرك ، بتطهير نجد . وفداحة الخسائر بموت القراء حتى خيف على القرآن ، فأمر الخليفة بجمعه . ومنها إذنه للجيوش أن تفتح أرض الله للإسلام خارج جزيرة العرب بعد حروب نجد وبعد الانتصار الذى يأذن للدعوة بالانتشار .

ولو تهاون « الصديق » فى ردة العرب لا نطوى المسلمون فى جزيرة العرب على أنفسهم منهزمين .

ومن هذه النتائج يتراءى أثر أبى بكر الصديق فى كمال حجمه فى الإسلام ، وإن كانت خلافته أقصر خلافة للراشدين رضى الله عنهم .

أما عن ميادين المعارك فحسبنا منها فى هذا المقام أمور :

١ – أن الكفاح الذى سالت فيه أرواح هؤلاء العظماء قد تم فى المواقع التى ذكرناها والتى

ستدور فيها أو فى القريب منها معارك دعوة التوحيد الجديدة . وأن بعض من سيخوضونها هم حفدة القوم الذين ناصروا خالدا فحاربوا معه أو ناهضوه وقاتلوا المهاجرين والأنصار .

٢ – أن هذه الناحية وحدها بين عشرات الأنحاء فى جزيرة العرب كان فيها متنبئون ثلاثة هم : مسيلمة وطليحة وسجاح بين خمسة فى كل أرض المسلمين ! وأن هؤلاء المتنبئين كانوا يضنون بالسيف لأنفسهم صدارة العرب ، وأن مسيلمة الكذاب طلب إلى النبى ﷺ (أول ما تنبأ مسيلمة) : أن يكون له نصف النبوة ونصف الأرض وقال عن قريش إنهم لا يعدلون . ولم ينس أن ينزل على نفسه وحياً ، وتابعه قومه كفراً :

سأله طليحة الثرى : من يأتيك ؟ (يقصد بالوحى) ؟ قال : رحمان ؟ قال طليحة : أشهد أنك كذاب ، وأن محمدا صادق ، لكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ! واتبع طليحة مسيلمة ، وقتل معه بعد أن كفر متعصبا له ولقومه .

وكمثل تعصب هذين لقومهما وشعوذة مسيلمة كانت شعوذة طليحة الأسدى : لقد تنبأ طليحة فى أخريات حياة النبى ، فهم به أحد المسلمين بضربة سيف ، لكنه سلم وأذاع الأشياع أن السلاح لا يجوز فى نبيهم ، فاستغلظ أمره ، ولم يكن أدنى من هذا اللدد عناداً زعيم فزارة الذى تألفه الرسول بالعطاء ، ليطامن جماحهم ويكف غلظتهم ، ومع ذلك كان (عيينة بن حصن الفزارى) بعد أن قبض الرسول يقول :

(والله لأن نتبع نبياً من الحليفين – أسد وغطفان أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش ! وقد مات محمد وبقى طليحة) !

ولما سيق بين أسرى المرتدين إلى أبى بكر بالمدينة كان غلمانها يخسونه بالجريد ويقولون : أى عدو الله ، أكفرت بعد إيمانك ؟ فكان يقول للغلمان من كبريائه وهمجيته : (والله ما كنت آمنت قط) .

وكان عفو الصديق أكبر . لقد حقن دمه ، ولأم جراح بنى فزارة ، ودفع الجميع ليفتحوا الأرض بالإسلام .

٣ – أن لقبائل بنى تميم مكانة فى العرب كما تزخر بذكرهم كتب الأدب ، فالوفد من أشرافهم إلى المدينة هم الذين دخلوا المسجد ، ونادوا النبى ﷺ من وراء حجراته يفاخرونه ، ولما قبض رسول الله ﷺ كانوا أول المرتدين .

٤ – أن مالك بن نويرة كان عاملا للنبى على بنى يربوع ، فكان فيمن رد الزكاة لأصحابها ولم ير لأبى بكر حقا فى اقتضائها . وجاءته سجاح – وهى تميمية من بنى يربوع – لتنحدر إلى بنى حنيفة فتتزوج مسيلمة الكذاب متنبئ بنى حنيفة ، ثم تفصل عنه راجعة إلى قومها ليلقى مصرعه يوم اليمامة .

٥ – أن يوم اليمامة قد خلده فى التاريخ استشهاد ثلثمائة وستين من المهاجرين وثلثمائة من الأنصار ومن الباقين كثيرين ، مما أبلغ عدد القتلى مائتين وألفاً من المسلمين .

أما جيش مسيلمة وكان قد بلغ الأربعين ألفا فقد أفقده الإصرار على الكفر نصف عدده .

بهذا تخلد أسطورة الروح القبلى فى بنى حنيفة وبنى تميم فيجعل كل فرد فى نجد قلعة مستقلة . وتغرز فى طبيعتهم سليقة الفرقة . وليس بدعا أن نرى زعيم (فرقة النجدات) الخوارج نجدة بن عويمر – وهو من بنى حنيفة – يخرج على الجميع ، ليجعل كل إنسان أمةً وحده ! فيرى إقامة الإمام غير واجبة وحسب الجماعة أن تلتزم الحق فيما بينها وبين الأفراد وبينهم وبين أنفسهم .

* * *

والشيخ يستخرج من هذه الحروب التى أفضنا فى ذكرها ، لما فيها من عبر يستنبطها القارئ ، حججاً له على قومه سواء فى الفعل أو فى الفقه أو فى سياسة الدولة أو فى أصل العقيدة من عمل الصحابة مجتمعين خلف الصديق رضى الله عنهم . وهى – بعد صيحة للجهاد فى سبيل العقيدة يصيح بها الشيخ ويعمل بأصلها فى مجالس الدرس وساحات المعارك ، كما يستصحبها كل مسلم – لا يستقعده العيش الغفول عن التصدى للمنكر ، أو يستكفه الجبن الجهول عن الجهاد فى سبيل دينه .

ومجالس الدرس هى المجال الحى لهذا العلم العملى ، وهو القوة الضاربة فى يد الداعية : يقول فى المختصر ما يفيض فيه فى مجالس علمه ويردده فى رسائله .

(إن بنى حنيفة أشهر أهل الردة ، وهم الذين يعرفهم العامة من أهل الردة ، وهم عند الناس أقبح أهل الردة وأعظمهم كفرا ، وهم مع هذا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويؤمنون ويصلون . .) .

ويقول : (وطائفة من أهل الردة - صدقوا مسيلمة أن النبى ﷺ أشركه معه فى النبوة ، وذلك أنه أقام شهوداً شهدوا معه بذلك . ومنهم رجل من الصحابة معروف بالعلم والعبادة يقال له الرجال فصدقوه لأجل ما عرفوا فيه من العلم والعبادة . . .) .

ويقول : (إن العلماء فى زماننا يقولون : من قال لا إله إلا الله فهو المسلم الحرام المال والدم لا يكفر ولا يقاتل حتى إنهم يصرحون بذلك فى شأن البدو الذين يكذبون بالبعث ، وينكرون الشرائع ، ويزعمون أن شرعهم الباطل هو حق الله) .

ويقول : (إن بقايا من بنى حنيفة لما رجعوا إلى الإسلام وتبرءوا من مسيلمة وأقروا بكذبه كبر ذنبهم عند أنفسهم وتحملوا بأيديهم إلى الثغر لأجل الجهاد فى سبيل الله لعل ذلك يمحو عنهم آثار تلك الردة . . فنزلوا بالكوفة وصار لهم بها محلة معروفة فيها مسجد يقال له مسجد بنى حنيفة ، فمر

بعض المسلمين على مسجدهم بين المغرب والعشاء ، فسمعوا منهم كلاما معناه أن مسيلمة كان على حق ، وهم جماعة كثيرون ، لكن الذى لم يقله لم ينكره على من قاله ، فرفعوا أمرهم إلى عبد الله ابن مسعود ، فجمع من عنده من الصحابة واستشارهم : هل يقتلهم وإن تابوا أو يستبقيهم ؟

فأشار بعضهم بقتلهم من غير استتابة ، وأشار بعضهم باستتابتهم ، فاستتاب بعضهم وقتل بعضهم ولم يستتبه .

والقصة فى صحيح البخارى . . . فأين هذا من كلام من يزعم أنه من العلماء ويقول : البدو ما معهم من الإسلام شعرة إلا أنهم يقولون لا إله إلا الله . ومع ذلك يحكم بإسلامهم بذلك ؟ أين هذا مما أجمع عليه الصحابة فيمن قال تلك الكلمة أو حضرها ولم ينكر . . .) .

ويقول : (فى قصة أصحاب على بن أبى طالب . لما اعتقدوا فيه الألوهية التى تعتقد اليوم فى أناس من أكفر بنى آدم وأفسقهم . فدعاهم إلى التوبة فأبوا فخدّلهم الأخاديد وملأها حطباً وأضرم فيها النار وقذفهم فيها وهم أحياء ! ومعلوم أن الكافر مثل اليهودى والنصرانى إذا أمر الله بقتله لا يجوز إحراقه بالنار ، فعلم أنهم أغلظ كفرا من اليهود والنصارى . هذا وهم يقومون بالليل ويصومون النهار ويقرءون القرآن آخذين له عن أصحاب رسول الله ﷺ فلما غلوا فى علىّ ذلك الغلو أحرقهم بالنار وهم أحياء . وأجمع الصحابة وأهل العلم كلهم على كفرهم ، فأين هذا ممن يقول تلك المقالة مع اعترافه بهذه القصة وأمثالها واعترافه أن البدو كفروا بالإسلام كله إلا أنهم يقولون لا إله إلا الله ؟ .

واعلم أن جناية هؤلاء إنما هى على الألوهية ، والذين قبلهم جنايتهم على النبوة . وما علمنا لهم جناية على الإلهية ، وهذا مما يبين لك شيئا عن معنى الشهادتين اللتين هما أصل الإسلام . . .) .

ويقول : (ما وقع فى زمن التابعين : وذلك قصة الجعد بن درهم ، وكان من أشهر الناس بالعلم والعبادة ، فلما جحد شيئا من صفات الله مع كونها مقالة خفية عند الأكثر ضحى به خالد ابن عبد الله القسرى يوم عيد الأضحى فقال : أيها الناس ضحوا ضحاياكم فإنى مضح بالجعد بن درهم . فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، ثم نزل فذبحه ، ولم نعلم أن أحدا من العلماء أنكر عليه ذلك ، بل ذكر ابن القيم إجماعهم على استحسانه . . . فأين هذا من اعتقاد أعداء الله فى البدو . . . ؟)

انتشار الدعوة

وكلما قلب الشيخ صفحات السيرة العطرة جاءته العبر باليقين فى مستقبل الدعوة ، فمن بعد حروب نجد انطلق المسلمون بالدعوة إلى خارج جزيرة العرب بعد أن ضربتهم الحرب ، فكانت

ميادين تجارب هانت بعدها التضحيات فى القادسية واليرموك ومصر ، ثم كان الموالى يسلمون من دون معارك تهديهم حقائق الحنيفية السمحة وعدالة الحكام التى يأمر بها الإسلام وأداء الأمانة لمستحقيها .

والشيخ لا يضيع الزمان سدى بل يهذب ويربب ، وربما شهد التدريب للحرب . وله آراء فى الحرب تسير مع دروسه إلى ميادين المعارك . . فالتلميذ الصالح هو المجاهد الذى لا يقهر .

وأحسن الشيخ استعمال الزمن ، والزمن قوة من قوى الطبيعة لمن تريد السماء نصره . والله مع الصابرين .

والناس ينسلون إلى الشيخ من كل حدب ، يسقيهم من ينابيع التوحيد وسيرة الرسول وأصول الفقه وفروعه ما يحيى الأنفس .

والحروب فى الأقاليم المجاورة للدرعية دائرة الرحى لا تكاد تتوقف للذود عن العقيدة والدفاع عن الجماعة . والانتصارات التى وعد بها الله لا تتخلف ، ولهذا شيد الشيخ المسجد الجامع بالدرعية ليسع تلاميذه . . والشيخ حريص على تأليف القلوب بين الوافدين وبين أهل الدرعية ، ليجعل بين الجميع أخوة مثل مؤاخاة رسول الله بين المهاجرين والأنصار .

والشيخ خفيض الصوت مستفيض البيان ، ينساب شرحه فى يسر إلى الآذان والأذهان ، فإذا انتهى الدرس فقلما يفتر لسانه عن قوله : (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) ويأخذ فى إعداد رسائله إلى العلماء فى بقاع الإسلام . وهى جميعاً تحمل طابع إملائه وتحتوى حججه .

والشيخ يقوت طلابه ويمونهم ، فالعلم مسئولية أخذ الله على العلماء موثقاً أن يبينوها ، فكل نفقة فى سبيل تحصيله وجه عبادة ، وأفضلها جميعاً نفقات تعليمه .

وبهذا تكاثرت ديون الشيخ على مدار السنين . وكان يعجز عن السداد ، فيقبل من الدائنين نظرة الميسرة . ولا يرضى عن التجاوز . حتى جاء نصر الله بفتح مدينة الرياض ، وسدد الشيخ ديونه من نصيبه من الغنائم .

ذلك أن انضمام حريملا والعيينة للدعوة ثبت المحور المكين فى نجد ، فطوت أخبارها جزيرة العرب كأمر واقع ، ونصر وعد الله به ، وإن لم يتوقف الصدام الدموى الذى سنتحدث عن قليل منه بعد ، وقد أفاضت فى تفصيله مؤلفات ابن بشر وابن غنام ، وحسبنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن انتصارات آل سعود طبقت آفاق نجد ، وخشى أمير الرياض دهام بن دواس أن تعلو كلمة أمير الدرعية وتضؤل قيمة الرياض . فهاجم الدرعية مرات فى سنوات ، لكنه كان ينهزم عنها . أو ترد الهجوم عليها بهجوم على عاصمته عاماً بعد عام ، حتى حاقت به الهزيمة ، وهرب من الرياض فدخلتها جيوش الموحدين سنة ١١٨٧ بعد نحو عشرين عاماً من الحروب الدامية ، والوفود تترى

تبايع الشيخ على التوحيد قادمة من شتى بلاد نجد : ضرمى وثرمداء والوشم وأثيفية والعزيقية وشقراء والقرعة وسدير والزلافى وجلاجل والحوطة والروضة والخرج والدمام .

* * *

ولما اتجه نشاط الدعوة صوب الحجاز رفع الشريف مسعود شريف مكة سنة ١١٧٢ تقريراً لباب العالى فى القسطنطينية ينبه الأتراك العثمانيين على خطورتها على كيان الدولة العثمانية فى جزيرة العرب ، لكن الدرعية لم تكن تهتم إلا بالدين ، فبعثت وفداً من ثلاثين عالماً لمناقشة علماء الحجاز ، فأفتى قاضى مكة بكفرهم . وزج الشريف مسعود بالوفد فى السجن ، ومنع أهل نجد من الحج سنين .

حتى إذا تلاحقت انتصارات الدرعية وارتفع شأن الدعوة فى شرق الجزيرة حسن النصر أمرها فى أعين الأشراف الذين يحكمون الحجاز باسم (تركيا) وجمّل بالصبر قلوب أهل الدرعية ، فأصبحوا يتصرفون مع الآخرين من مواقع القوة وأخلاق النجاح :

والشيخ يوالى كتبه إلى أهل مكة فيمن يدعوهم للتوحيد الخالص ، ولذلك طلب إليه شريف مكة أحمد بن عبد العزيز علماء نجد ليفاتهوا علماءه ، واستجابت الدرعية ، فبعثت وفداً رسمياً من العلماء يقدمه خطاب رسمى من أمير الدرعية جواباً عن خطاب رسمى من شريف مكة . وتظهر فى عبارات خطاب الأمير آثار قلم الإمام الذى أملاه . وتواضع الداعية ، والجدال بالتى هى أحسن . وهى الطريق التى أمر بها القرآن وجرت عليها السنة . قال : (ولما طلبتم من ناحيتنا طالب علم امتثلنا الأمر ، وهو واصل إليكم ، ويحضر فى مجلس الشريف أعزه الله تعالى . هو وعلماء مكة ، فإن اجتمعوا فالحمد لله على ذلك ، وإن اختلفوا أحضر الشريف كتبهم وكتب الحنابلة . . . .) .

واجتمع الرسول – الشيخ عبد العزيز بن الحصين – وعلماء مكة فتفاوضوا فيما هم فيه مختلفون . وهو ثلاث مسائل .

الأولى : ما نسب إلى أنصار محمد بن عبد الوهاب من تكفير المسلمين بالعموم .

الثانية : هدم القباب التى على القبور .

الثالثة : إنكار دعوة الصالحين والشفاعة .

وأنكر ابن الحصين المسألة الأولى ، وتمسك بالثانية قولاً بأنه ليس من العلماء من شك فيها . وتمسك بالثالثة ، لأنها من الشرك الذى فعله القدماء ، . . . فجاءوا بكتب الحنابلة ، فوجدوا أن الأمر على ما ذكره ابن الحصين فاقتنعوا .

وسنشهد بعد أكثر من قرن اقتناع علماء مكة والمسلمين معهم ، ولكن بعد حروب دامية يحمل وزرها السياسيون والجهلاء ، بما فرقت المسلمين وعوقت تقدمهم . وأخرت من وحدة العرب .

كان الشيخ يقول عن نفسه وكأنما يقصد طريقته : (وأنا امرؤ فيّ بعض الحدة ، وهي حدة لاتثبتْ حقاً ولا تخرج بصاحبها عن الجادة) .

والحدة عرض القوة لكنها تضعف الحجة ، وتسد الطريق على الموعظة) .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الجادة ، ومن الإنصاف يصحح الآمر بالمعروف طريقه ، ليكون أقصد إلى الغرض وآكد للقبول . وبعض الحدة أنجح للذين يتولون التنفيذ أو القيادة في بعض الظروف .

وليست عبارات الشيخ إلى شريف مكة أسجع من عباراته في رسائله إلى العلماء .

يكتب في خطاب : (فالواجب منك مذاكرتنا ونصيحتنا وتدريبنا عبارات أهل العلم لعل الله يردنا بك إلى الحق) .

وفي ثان (. . . فإذا أنا لم أفهمه ولا معنى آخر ، فأرشدوني عسى الله أن يهدينا وإياكم وإخواننا لما يحب ويرضى) .

فالشيخ لا يدع حقه لباطل غيره .

وفي ثالث يصدع بأصل من أصول الاجتهاد فيقول : (ومتى لم تتبين لكم المسألة لم يحل الإنكار على من أفتى أو عمل حتى يتبين خطؤه) .

ويصدع بأصل في خطاب رابع فيقول : (لا يجوز إنكار مسألة لا يُعرف حكم الله فيها) ذلك بأن للشرع في كل مسألة حكماً وعلى المجتهد طلبه .

وليست الحجج بكثرتها ولكن بقوتها ، ولا هي بعدد من يقبلونها ، ولكن بصحتها وقدر فهمهم لها وانتفاع الناس بها .

والشيخ يكتب في إحدى رسائله : (قال ابن القيم : واعلم أن الإجماع والسواد الأعظم هو العالم صاحب الحق وإن كان وحده وإن خالفنا أهل الأرض) .

ومن ثم كانت صلابة الدعوة وإصرار الداعية على نهجه ، مادام على الحق .

والشيخ لا يتهاون مع الضالين ولا يتهادن مع الكافرين ، بل يجادلهم بالفقه الصحيح والسنة الثابتة .

يقول في خطاب : (وأما مسألة التذكير فكلامك فيها من أعجب العجائب : أنت تقول : (بدعة حسنة) والنبي يقول : (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) ، ولم يستثن شيئاً تشير علينا به ، فنصدقك أنت وأباك ونكذب رسول الله ؟ .

وموسوعة الشيخ الفقهية فياضة بالفقه يقول في خطاب : (فهذه ستة مواضيع في « الإقناع » في باب واحد . إن من فعلها فقد كفر ، وهي دينك ودين أبيك) .

وقال أيضاً - صاحب الإقناع - ومن قال : إن لأحد طريقاً إلى الجنة غير متابعة

محمد ﷺ ، أولا يجب عليه اتباعه ، أو لغيره خروجاً عن اتباعه ، أو قال : انا محتاج إليه فى علم الظاهر دون علم الباطن ، أو فى علم الشريعة دون علم الحقيقة أو قال : إن من العلماء من يسعه الخروج عن شريعته كما وسع الخضر عن شريعة موسى - يكفر فى هذا كله) .

وفى خطاب له يرتفع عن فضول التفاصيل ومصطلحات المتكلمين إلى التذكير بصحابة الرسول فيذكر قول أبى الوفاء بن عقيل : (أنا أقطع أن أبا بكر وعمر ما عرفا الجوهر والعرض . فإن أيت أن طريقة أبى على الجبّائى (المعتزلى) خير لك من أبى بكر وعمر فبئس ما رأيت) .

وهو بهذا يرفع المنهج السلفى إلى مكانته بين طرائق أهل السنة حيث أبو بكر وعمر فى جوار صاحبهما ﷺ فى الذروة ، وحيث تنخفض دونهما كل رتبة ، سواء أكانت مرتبة الفرقة الجبائية أم مَنْ وراءها من فرق المعتزلة .

* * *

أما عن مشاركة الشيخ فى شئون الإمرة فيمكن إجمالها فى غلبة السلطان الدينى على السلطان الزمنى لصدق إيمان أولى الأمر ، من العالم الكبير والأمير . وعملهما معاً ، ولصحة إيمان الجماعة التى ترد كل منحرف إلى القاعدة ، فيحسب حسابها أولو الأمر . علماء كانوا أم أمراء .

وللشيخ سلطان على صاحب السلطان طوال حياته ، لما بينه وبين محمد بن سعود من بيعة كل منهما للآخر ، وما بينه وبين ابنه عبد العزيز ، لأنه معلمه ومعلم الأمة والدولة التى أنشأتها لهم دعوته . وهو فوق ذلك قد خصه بشرح فاتحة الكتاب ، وهذا الوضع ظاهر فى تقديم ابن غنام لتاريخه ، وهو تلميذ الشيخ المكلف بوضع تاريخ هذه الملحمة .

وعندما تأخذ الأمير نشوة النصر يذكره ابن عبد الوهاب بحاجته إلى ذكر الله والشكر لأنعمه ، فيكتب إلى عبد العزيز بن محمد بن سعود بطل الملحمة السعودية الأولى إذ فتح الله عليه مدينة الرياض :

(أحب لك ما أحب لنفسى ، وقد أراك الله فى عدوك مالم تؤمل ، والذى أراه أن تكثر من قول الحسن البصرى وكان إذا ابتدأ حديثه يقول :

اللهم لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وفرجت عنا ، لك الحمد بالإسلام والقرآن . ولك الحمد بالأهل والمعافاة ، كبت عدونا وبسطت رزقنا ، وأظهرت أمتنا . وأحسنت معافاتنا . ومن كل ماسألنا - ربى أعطيتنا ، فلك الحمد على ذلك حمداً كثيراً حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت) .

والشيخ هو الذى وضع لمحمد بن سعود سياسة الحرب فى أمور معروفة منها :

١ - التدريب العسكرى المستمر على الحرب . وتحمل المشاق لإعداد العقول السليمة فى الأجسام السليمة ، لتقدر على نشر الدعوة والدفاع عنها .

٢ - الانتفاع بالتكنولوجيا المعاصرة فى الحرب والتدريب على استعمال البنادق ، وكانت قد دخلت حديثاً فى جزيرة العرب مع جيوش الأتراك .

٣ - استعمال الحرب الاقتصادية لتحقيق الأغراض العسكرية والسياسية : كتأديب قوافل التجارة التى تصدف عن طريقها العادى فى أرض نجد ، لتمنع تجارات الإقليم مع الخارج ، وتقصر تجاراتها على بلدان العدو .

٤ - الإفادة من تلاميذ الشيخ وأتباعه ، ليكونوا عيوناً للدعوة يظهرون ما يضمر أعداؤها لها . وأعواناً أشداء إذ تقارب جيوشها مدنهم ، فلا يطول حصارها أو قتالها وتستسلم .

٥ – وكان تركه السيادة القانونية فى الإمرة لابن سعود آية الصدق فى دعوته ، بالبعد عن المظاهر ، والزهد فى الحكم ، قدر ما كان وسيلة لتأليف قلوب الحكام .

٦ - وكانت الأناة والرحمة نصيحة دائمة منه للأمير ، ولقد طالما نهته الأمراء عن القسوة وبخاصة عبد العزيز بن سعود ، إذ نصحه ألا يتهور سيفه ، أو تتجاوز الحدود مسالحه ورباطاته ؛ فالإسلام حنيفية سمحة ورسوله رحمة مهداة .

وإنما انتقل التخريب إلى العراق أوكربلاء – خصوصاً – بعد موت الإمام ، ومن جرائه قتل عبد العزيز بيد شيعى هاله هدم قبة الحسين رضى الله عنه .

وبالإغارة على العراق وجد الأمير السعودى نفسه وجهاً لوجه مع الإمبراطورية التركية ؛ إذ كان الأتراك أصحاب السلطة الفعلية على العراق . ويومئذ بدأ الصدام مع الأتراك .

ورمى الخصوم الشيخ بإفك يهيج له العرب . قالوا : إنه أجاز سبى العرب . وهى شنعة يستنكرها الشيخ بصوت عال ويدلل على استنكاره بتاريخ حروبه . فيقول (لا نرى سبى العرب ولم نفعله ولا نرى قتل النساء والصبيان) فى حين يجيز قتل مانعى الزكاة وتاركى الصلاة كما صنع أبو بكر .

والشيخ بذلك يضرب لنا مثلاً على اجتهاده المطلق ، فهو لا يرى سبى العرب فى حين كان أحمد بن حنبل صاحب المذهب يراه ، لأنه يعمل بالحديث إذا بلغه ولا يعمل برأى غيره مهما كان مصدره . يقول أحمد : (لا أذهب إلى قول عمر «ليس على عربى ملك» قد سبى النبى ﷺ العرب فى غير حديث ، وأبو بكر وعلى حين سبى بنى ناجية) ولم يثبت عند أحمد حديث معاذ أن النبى قال يوم حنين : (لوكان الاسترقاق جائزاً على العرب لكان اليوم . إنما هو أسرى) .

والشافعى يقول فى الأم : (أخبرنا سفيان (بن عيينة) عن الشعبى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : (لا يسترق عربى) قال الربيع : قال الشافعى : (ولولا أننا نأثم بالتمنى لتمنينا أن يكون هذا هكذا) .

فى سنة ١١٧٩ - ١٧٦٦ مات محمد بن سعود (١) وخلفه ابنه وبطل حروبه بعد ذ أبلغت بطولات الرجلين دعوة الشيخ أبعد حدود نجد وتخطتها إلى ما تلاها من الأقاليم . عندئذ بعث الشيخ إلى عبد العزيز يعتزل المشاركة فى الغزوات والسياسات . وإن ظل يشير فى الأمور .

وفى الأعوام العشرين الأخيرة من حياته انقطع لتعليم المسلمين وهو قوى البنية ، رفيع القامة ، له وقار وهيبة ، وجال منظر الداعية المظفر (٢) .

وطالت مجالس العلم وتعاقبت السنوات تحمى بشائر الفتح والنصر وانتشار الدعوة فى الجنوب والشمال والشرق والغرب ، وعاد إلى الشيخ الفتاء ؛ ففى كل نصر ونجاح فكر أسباب للقوة والفتوة . ولكل أجل كتاب .

* * *

فى صيف سنة ١٢٠٦ - ١٧٩٢ بلغ الشيخ الواحدة والتسعين من العمر . واخلولق الأجل . وكان قد ثقل ، فصرفته صوارف الهرم عن الحياة العامة ، لكنه ظل يهدج إلى المسجد متهادياً بين اثنين ، حتى انتقلت روحه إلى الرفيق الأعلى مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً (٣) .

---

(١) تخلد اسمه الآن الجامعة الإسلامية (جامعة الإمام محمد بن سعود) بالرياض بالمملكة العربية السعودية ودروسها قاصرة على العلوم الشرعية .

(٢) تزوج الشيخ فى حياته الطويلة بأكثر من امرأة : الأولى منهن فى العيينة قبل الرحلة الأولى للحجاز ، وتزوج فى العراق ، ومن بنى يمن بعلة الجوهرة بنت الأمير عبد الله بن معمر .

ومن أبنائه ٦ ذكور و٦ إناث

أما البنون فهم : إبراهيم وهو فقيه استشهد على أيدى الأتراك عقب سقوط الدرعية سنة ١٢٣٣ - وإخوة إبراهيم هم : عبد العزيز كان قاضى العيينة ثم حريملا وحسين وعلى وحسن وعبيد الله . وقد شارك عبد الله أخاه حسناً فى القضاء . وكان لعبد الله ولدان (سليمان وعبد الرحمن) قتل إبراهيم باشا أولهما وبعث الآخر صغيراً إلى مصر مع أبيه ، فبقى فى مصر أربعين عاماً حتى توفى سنة ١٢٧٤ - ١٨٥٨ بعد أن أحيا فيها المذهب الحنبلى . أما حسن فله أبناء علماء أشهرهم : عبد الرحمن بن حسن رئيس قضاة المسلمين فى عهد تركى بن عبد الله .

ومن ذريته الشيخ محمد بن إبراهيم مفتى السعودية فى عهد الملوك عبد العزيز بن عبد الرحمن وسعود بن عبد العزيز وفيصل بن عبد العزيز .

وتولى حسين الإفتاء والتدريس مع أبيه .

وله أولاد منهم حسن وله ولد اسمه عبد الله كان رئيس قضاة نجد زماناً ومن بناته أم الملك فيصل .

وأنجب ابنه عبد الرحمن فى مصر وله ذرية فيها . ولما مات منهم محمد بن عبد الرحمن حق بن أحمد الأزهرى (وكان صيدلياً) نعته صحيفة الأهرام الواسعة الانتشار فى العالم العربى فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٣٨/١/٢٣ .

(٣) تولى منصب الدعوة بعد موت الشيخ أبناؤه . وحفدته ، فاختص آل الشيخ بالعلم والقضاء ،

وخلف الشيخ فى منصب الدعوة ابنه حسين وكان كفيفا . وفى قضاء الدرعية . فكانت له الإمامة والخطبة .

وخلف حسيناً أخوه عبد الله وابنه على بن حسين .

وهجر على الدرعية إذ دمرتها مدافع الأتراك على ما ستشهده بعد . ولجأ إلى رأس الخيمة على ساحل الخليج العربى ، وشهد ضرب الأسطول البريطانى لها .

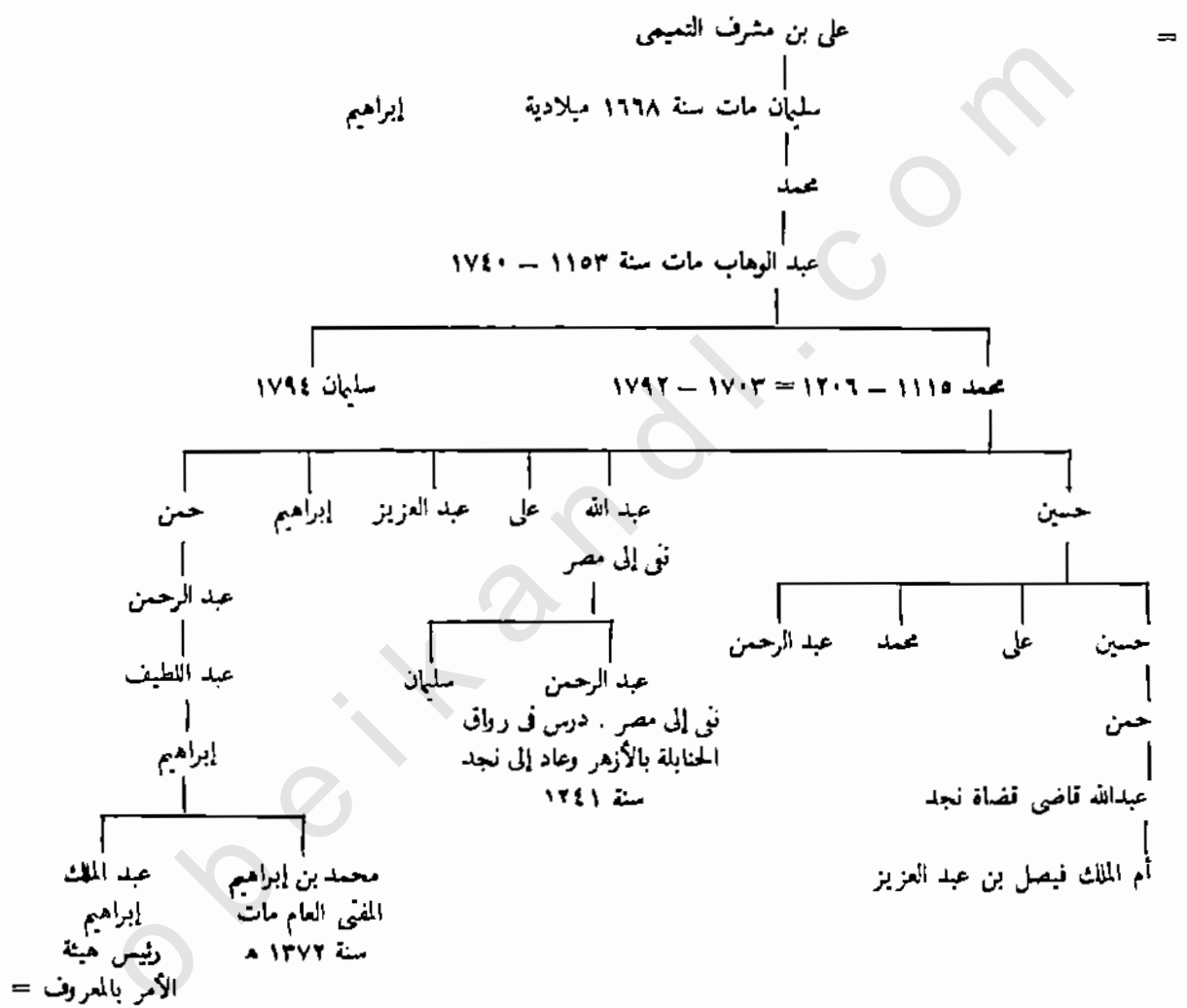
=
علي بن مشرف التميمي
سليمان مات سنة ١٦٦٨ ميلادية
إبراهيم
محمد
عبد الوهاب مات سنة ١١٥٣ — ١٧٤٠
سليمان ١٧٩٤
محمد ١١١٥ — ١٢٠٦ = ١٧٠٣ — ١٧٩٢
حسين
عبد الله
نفى إلى مصر
علي
عبد العزيز
إبراهيم
حمن
عبد الرحمن
عبد اللطيف
إبراهيم
محمد بن إبراهيم
المفتي العام مات
سنة ١٣٧٢ هـ
عبد الملك
إبراهيم
رئيس هيئة
الأمر بالمعروف =
سليمان
عبد الرحمن
نفى إلى مصر . درس في رواق
الحنابلة بالأزهر وعاد إلى نجد
سنة ١٢٤١
حسين
محمد
علي
عبد الرحمن
حمن
عبدالله قاضي قضاة نجد
أم الملك فيصل بن عبد العزيز

وسعت حياة الشيخ أجيالاً ثلاثة ! هيأ أولها للدعوة أن تنفذ إلى القلوب ، وهيأ الثانى لها أن تختلط بالدماء إذ تنقلها دماء جيل إلى جيل ، وهيأ الثالث لها أن أصبحت «طريقة حياة» للجماعة ، وبهذا حاربت الأجيال الثلاثة دون عقيدتها بضراوة وستحارب . وعندما يصبح الائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر «طريقة حياة» لأمة تمسى خير أمة أخرجت للناس .

وحسب الدعوة وصاحبها جزاء أن تُصنَع هذه الأمة على عينه وبيده ، وأن تبنغ شأوها فى حياته .

والخلد منتهى همم كبار تضع صاحبها فى مكانه من التاريخ قدر ما أحدث من أثر .

وليس من الممكن حصر آثار الشيخ أو تراثه فى الأمة الإسلامية ، لأنها تتعلق بالعقيدة وما تحدثه فى الدنيا من صلاح ، وفى الجماعات من تطور . وإن ساغ لنا أن نشير إلى بعض الأبعاد التى أدركتها :

أولها : أنه علّم المسلمين فى عهده ومن بعده عقيدة التوحيد الصحيحة ، ولم يكن فى ديار المسلمين أيامئذ عالم أثبت منه قدماً فى الفقه أو إطلاق الاجتهاد ومجانبة التقليد . فلما جاهد دون آرائه وقرن الجهاد بالاجتهاد أضاف إلى ما علمه للقرون اللاحقة أن الجهاد والاجتهاد معاً واجبان لإحداث التقدم واستمراره . وأن الإصلاح لا تحدثه أقوال المتقعدين ، وإنما يحدثه رجال صُلب يجاهدون . وأن الجهاد فرض عين على من تعين له ، وقد يكون جيلاً بتمامه .

ثانيها : أن قوام الأمة يعود إلى الاعتدال بظهور رجل واحد صادق العزم يعاونه حكام صدُق تستجيب الأنفس لما يدعونها إليه ، إذ يأخذون أنفسهم به ولا يخالفونهم إلى ما ينهونهم عنه : إذا حاربوا كانوا أقرب الجيش إلى العدو ، وإذا سالموا كانت للناس فى تقواهم الأسوة الحسنة .

ثالثها : أن الجماعة الصالحة والدولة الصالحة صنوان ، وأن الدعوة الصادقة تقيمهما معاً فالجماعة الساهرة على الفضائل لا تستبق إلا دولة تحميها .

رابعها : أن المنهج السلفى قد أثبت فى حياة الشيخ وبعد مماته ، وبدليل عملى حى من واقع الجماعة التى نهجته - اقتداره على إحداث الأطوار الضخمة فى تاريخ الأمة من طور الجهاد للاستقلال إلى طور الكفاح لتثبيت الدولة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر إلى طور استعمال التكنولوجيا المعاصرة فى القرن الرابع عشر كما سنرى بعد .

وهذا الإنجاز الحضارى آية على أبدية الحنيفية السمحة وتمكينها العقل البشرى أن يبلغ شأوه .

- وكان اهتمام الفرنسيين بدعوة ابن عبد الوهاب عدلاً لاهتمام الإنجليز بدولة آل سعود .

فى أول القرن التاسع عشر لميلاد ظهر فى باريس كتاب (تاريخ الوهابية من بدء ظهورها حتى ١٨٠٩ وضعه Courrancez عضو المجمع العلمى الذى أنشأه نابليون بمصر ثم صار عضو الأكاديمية الفرنسية .